ساحة الجريمة والعذاب « لن أبيعهم أرضي حتى لو مت جوعا » . وقد أورث هذا المعنى لابي الذي كان امتحانه أقسى وأعنف . انه يعيل أسرة من ثمانية افراد تسكن بيتا من الطين لا يصلح حظيرة لحيوان مدلل . ولا مصدر رزق للاسرة الكبيرة التي تطالب بالاكل والثياب والدواء والكتب غير انتحاره البطيء على مقالع الحجارة ، يصحو في الخامسة صباحا ويعود في الخامسة مساء الى النوم ليصحو قادرا على مواصلة العذاب اليومي . كان المقلع بعيدا في منطقة مصادرة سموها منطقة مناورات عسكرية ، وكان الوصول اليها يقتضي التوقيع على وثيقة الموت التي تحمل تنازل حاملها عن حياته واهدائها الى دولة اسرائيل في حالة تعرضه الى الموت .

نصحوه ببيع أرضه ليخفف من عبء لا يحتمله « لن أبيع ولو مت بين الصخور » . كان يقول دائما : ليس العمل الاسود عيبا ولكن الضمير الاسود هو العيب . كنت في السنة الاخيرة من المدرسة الابتدائية حين القيت قصيدتي الاولى على جمهور كبير جمعه اعوان الحكم العسكري للاحتفال بذكرى قيام اسرائيل . قلت كلاما ضد الحكومة والانتصار وضد الظلم والاستعمار ، فجن جنون مختار القرية المسؤول عن الاحتفال وقال : هذا الصبي جاء ليخرب بيتنا بعدما خرب بيته وبيت أهله . لماذا لا يراعون أصول الضيافة . . وغيره من الكلام الذي نسمعه الان . وفي اليوم التالي استدعاني الحاكم العسكري واسمه دوف ، فوبخني وضربني فما بكيت . وحين قال لي : سأمنع اباك من العمل في مقلع الحجارة واقطع عنه تصريح الموت ، بكيت في طريق العودة الى البيت ، لان هذا معناه ان ازداد جوعا وبردا ، والا انتقل الى المدرسة الثانوية ذات التكاليف الباهظة ، فليس التعليم مجانيا كما يظن البعض . وفي البيت شجعني أبي وقال الله يرزقنا. كان أبي بطل الصبر والامل ولم يزل .

وكانت عين الماء شحيحة في القرية وما عندنا مال لاستئجار بئر . واللاجئون ملعونون في بلادهم وخارج بلادهم . لا يعطينا أحد ماء بالمجان الا السماء ايام الشتاء . فكانت أمي تقضي نصف نهارها في انتظار امتلاء الجرة من عين الماء التي تعطي قطرات بخيلة . كانت جميلة وقاسية تنشر الرعب في البيت . وحين تكون وحدها تبكي بلا مناسبة وبلا انقطاع وتهدهد أختي الصغيرة بأغان شجية تذكر فيها سوء الطالع والحنين الى اشياء ضائعة كأنها مزامير بدائية . لم تذهب يوما الى أعراس القرية ولكنها أول من يذهب الى جنازة في القرية والقرى المجاورة . عاجزة عن الفرح قادرة على البكاء . وبارعة في السخرية .

وكان عمي ينفذ وعد هرتسل ، فيعمل أجيرا عند سكان المستوطنة التي قامت على أرضه وأرض أبيه ، في أعمال البناء والترميم والفلاحة وغيرها من الاعمال السوداء « التي لم يتعود عليها اليهود» ولا يحصل على جائزة لانه لم يحمل لهم جلد الافاعي وبيضها، ولكنه كان يسرق عنقودا من العنب من الدالية التي غرسها وصارت ملك اليهود . وفي المساء يجمع أهل البيت ليوزع العنقود حبة .. حبة .

هكذا ، آثروا جميعا ، بالفطرة والكرامة ، أن يبقوا في وضع خانق طال توقيته ، لانه يحفظ لهم الحق في سعة العالم والغد ، على أن يستريحوا قليلا مقابل التنازل عن قطعة أرض تفقدهم عالمهم الذي ليس لهم .. وليس لاعدائهم ، ولكنه لابنائهم .

ـــ وماذا أخذتَ عنهم ؟

● المعاني ذاتها ولكن في اطار مختلف . كان انتظارهم سلبيا ، وكانت الارض تعني لهم تفاصيل من التراب والكروم وملكية تصون الكرامة والعيش . أما بالنسبة لابناء جيلي فانها تعني ـــ بالاضافة الى ذلك ـــ ساحة صراع ومستقبل . فالحنين طاقة انسانية غير متحركة . انه سلاح سلبي . وقد أخذ الصراع أشكالا متدرجة أولها الرفض والايمان